الفكر الإسلامي الحديث
في مواجهة تحديات الفكر الغربي المعاصر

إبراهيم المرزوقي
طالب باحث في سلك الدكتوراه السنة الثالثة
مركز دراسات الدكتوراه: الإنسان والمجال في العالم المتوسطي
تكوين الدكتوراه: الدراسات الإسلامية وقضايا المجتمع المعاصر
الأستاذ المشرف: الدكتور عبد الرزاق الجاي
المملكة المغربية

الملخص:

لم يكن الاستعمار الأوروبي لبلاد الإسلام، سوى حلقة من حلقات صراع هذا الغرب مع الإسلام والمسلمين، حلقة هي الأشدّ والأخطر، اُستُهدِفَ فيها الإسلام كدينٍ وكعقيدة، وما يرتبط به من تراث فكري، وثقافي، وحضاري، وليس كأرضٍ، وجغرافيا، وثروات فحسب، وكما ترك ذلك أثرًا على كلّ مَناحي الحياة الإسلامية، فقد ترك أثره أيضا على منظومة الفكر الإسلامي، بين الاعتراف بتقدم الغرب العلمي والصناعي والتكنولوجي، ورفض هيمنته وتسلطه على الشعوب المستضعفة، وبين تيار حداثي يرى أنه لا سبيل للنهوض إلاّ باتباع الغرب مطلقا، وتيار سلفي يأبى ذلك ويرى أنّ طريق السلف الصالح هو سبيل النجاة، وتيار ثالث، يرى الجمع بينهما هو الأنسب، هذا الجدل والموقف من العلاقة مع الغرب، لا يزال مطروحا على ساحة الفكر الإسلامي إلى اليوم.

الكلمات المفتاحية: الفكر الإسلامي الحديث، تحديات، الفكر الغربي المعاصر.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

European colonization of the lands of Islam was but one link in the chain of this West's conflict with Islam and Muslims, a link that was the most severe and dangerous, in which Islam was targeted as a religion and as a creed, and what is associated with it of intellectual, cultural and civilizational heritage, and not just as land, geography and wealth. Just as this left an impact on all aspects of Islamic life, it also left its impact on the system of Islamic thought, between acknowledging the scientific, industrial and technological progress of the West, and rejecting its hegemony and domination over the vulnerable peoples, and between a modernist current that sees that there is no way to rise except by following the West absolutely, and a Salafist current that rejects that and sees that the path of the righteous predecessors is the way to salvation, and a third current that sees combining both as the most appropriate. This debate and position on the relationship with the West is still present in the arena of Islamic thought to this day.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مبحث حول جهود التيار الإصلاحي السلفي نهاية (ق 19)وبداية (ق 20) في مواجهة مخططات الاستعمار، والانحطاط، والاستبداد:

على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها الغرب الاستعماري من أجل زحزحة المسلمين عن عقيدتهم، والوسائل المادية والمعنوية الضخمة التي وظفها لإضعاف الوازع الديني لديهم، والسيطرة على فكرهم وعقولهم، فإنه لم يفلح في ذلك، كما أنّ التيارات والحركات الهدامة التي صنعها من قبيل الشيخية، والرشتية، والبهائية، والقاديانية، لم تفلح هي الأخرى في تحقيق هذا الهدف، حيث كانت حركة اليقظة الإسلامية التي بدأت مع الحركة الوهابية في الحجاز، ثمّ السنوسية والمهدية، وما أعقبها من التيارات والحركات الإصلاحية، كانت لكلّ هذه المحاولات والمخططات بالمرصاد، ومع نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، ظهر جيل آخر من دعاة وزعماء الإصلاح، تولى إتمام رسالة حركة اليقظة، والوقوفَ في وجه مخططات الاستعمار الغربي وأدواته في العالم الإسلامي، حيث كانت معظم البلدان الاسلامية تواجه واقعا واحدًا خلال هذه المرحلة، تمثّلت في سيطرة اُستعمارية كاملة على مفاصل الحركة والحياة والحكم في هذه البلدان، ومعاناةٍ من الجهل والانحطاط والاستبداد، ما يتطلب إصلاحا وتجديدا شاملا لهذه المجتمعات.

وقد دعا هذا الجيل من المصلحين والدّعاة إلى التجديد، والاجتهاد، وتحرير الفكر من قيد التقليد، ومقاومة الاُحتلال الغربي، وكان أبرز هؤلاء جمال الدين الأفغاني، ومن بعده تلميذه محمد عبده الذي واصل الرسالة، وركز جهوده على إصلاح الحقل الديني والسياسي والاجتماعي، معتمدا تأصيل التربية والتعليم كمدخل لهذا الإصلاح، وفي نفس الفترة الزمنية كان عبد الرحمن الكواكبي يركز على جبهة محاربة الظلم والاستبداد، ثمّ من بعدهم محمد رشيد رضا، الذي اُستفاد من كلّ هؤلاء وقاد جهود الإصلاح والتجديد بخطى ثابتة نحو الأمام، وكانت مجلة المنار التي أسسها وسيلة للتربية والتعليم، ومنبرًا لبثّ الأفكار الداعية إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، والعلمي والسياسي، وكذا محاربة الجهل والخرافات والبدع، وسأتناول في هذا المبحث جهود هذا التيار الإصلاحي من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: الأفغاني ودعوته إلى التجديد وتوحيد صفوف الأمة:

يُعَد جمال الدين الأفغاني (ت 1897م) أحد أبرز زعماء الحركة الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد اُختلف منهجه الإصلاحي حسب الكثيرين، عن منهج المصلحين الذين سبقوه، خصوصا محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن علي السنوسي الكبير، هذين الأخيرين كما يقول محمد البهي، عاش كلّ منهما في الصحراء، وإن اُرتحل عنها، فإلى داخل البلاد الإسلامية، حيث تسود البدعة، والفرقة، واُستبداد الحكام، والرضا من الحياة بالوسيلة والشفاعة، والاكتفاء بالقعود عن السعي الجدي في طلب وتنمية الرزق، ومن ثمّ قام منهجهما الإصلاحي على العودة إلى منهج السلف الصالح، إذ هما لم يعرفا و لم يطّلعا على نظم الحياة الغربية، وعلى التقدم الذي شهده الغرب منذ اُنتقاله من عصور الظلام إلى عصر النهضة، عكس جمال الدين الأفغاني الذي خَبر عيوب الحياة الإسلامية، وجال في عواصم الشرق: الهند والحجاز ومصر وإيران والعراق وإسطنبول، وفي عواصم الغرب: لندن وباريس وميونيخ وسان بطرسبورغ، واُطّلع على الأحوال في كلّ هذه البلدان، ورأى ضعفا وتخلفا في الشرق، وقوة ونهضة في الغرب، كما أحاط بالإسلام علما وفهما واُستيعابا، ووقف على المسيحية، واُقتنع بأنّ الإسلام هو أداة القوة والمنعة والعزّة والسطوة. (1)

لقد وقف جمال الدين الأفغاني ضدّ كلّ الدّعاة والتيارات الموالية للاُستعمار الغربي، والدّاعية إلى مهادنته، والقبول به، والرضى

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بحكمه، مثل أحمد خان بهادرو (ت 1898م) في شبه القارة الهندية، واُتهمه بأنّه أداة في يد الاستعمار البريطاني لتنفيذ مخططاته وأهدافه في العالم الإسلامي،، بل الأكثر من ذلك، اُتّهمه بالخروج عن ملّة الإسلام، عندما قال أحمد خان بأنّ التوراة والإنجيل ليسا محرفين أو مبدلين إرضاءً للاستعمار البريطاني المسيحي، كما وجّه الأفغاني انتقادات لمذهبه الطبيعي الذي روّج له، وساعدته في ذلك الترويج الدوائر الاستعمارية من أجل القضاء على وحدة المسلمين، يقول الأفغاني أنّ أحمد خان بهذا:

"أخذ طريقا آخر في خدمة حكامه الإنجليز، بتفريق كلمة المسلمين وتبديد شملهم، فظهر بمظهر الطبيعيين الدهريين ونادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء، وليس لهذا الكون إله حكيم، فراق الحكام الإنجليز مشربه، ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين، فأخذوا في تعزيزه وتكريمه وساعدوه على بناء مدرسة في عليكره، وسموها مدرسة المحمديين، لتكون فخا يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل، أحمد خان بهادور، وكتب تفسيراً على القرآن الكريم، فحرف الكلم عن مواضعه وبدل ما أنزل الله."(2)

كان الهمّ الأكبر لجمال الدين الأفغاني، هو تحفيز المسلمين، ونشر الوعي في أوساطهم، حتى ينهضوا لمواجهة مخططات الاستعمار الغربي الجاثم على ديار الإسلام، وهو كما قال شكيب أرسلان، أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الإسلامي، وتمثّل عواقبها فيما إذا طال عهدها، واُمتدت حياتها، ورسخت في تربة الشرق، وأدرك شؤم المستقبل، وما سيترل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى، إذا لبث الشرق الإسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها، فهبّ يضحي بنفسه، ويُفني حياته في سبيل ايقاظ العالم الإسلامي، وإنذاره بسوء العقبى، ويدعوه إلى إعداد وسائل وأدوات القوة، والتوحد ضدّ هذا الخطر الداهم، وقد خشيت الحكومات الاستعمارية دعوته وأفكاره، خصوصا السلطات البريطانية التي سجنته في الهند، ونَفَته من مصر عندما اُحتلتها عام 1882م، فَسَاح في مختلف العواصم الإسلامية إلى أن وصل إلى القسطنطينية، حيث اُلتقى السلطان عبد الحميد الثاني، الذي كلّفه بالعمل على فكرة الجامعة الإسلامية. (3)

وهي فكرة تروم تحقيق الوحدة الاسلامية، وتدعيم أواصر الأخوة بين كلّ مسلمي العالم، في الصين والهند وأواسط افريقيا وغيرها، كما كان ضدّ الفكر القومي الذي بدأ يطلّ برأسه في تركيا، وقد أيّد الأفغاني فكرة الجامعة الإسلامية، وبعد أن كان مبتغى السلطان، وحدةٌ شعوريةٌ بين الشعوب الإسلامية، تقف في وجه الاستعمار الغربي، ويبقى معها مقام الخلافة قويا، تجاوز الأفغاني هذا المطمح بكثير، وقدم للسلطان مشروعا أكثر طموحا، يرمي إلى توحيد أكبر طائفتين إسلاميتين، وهما أهل السنة وأهل الشيعة على وجه الخصوص. (4)

إنّ فكرة الوحدة الإسلامية التي عمل عليها الأفغاني والسلطان عبد الحميد، كانت اُمتدادا للحركات الإصلاحية التي سبقت كالوهابية والسنوسية، غير أنّ الأفغاني، عمّق مفهوم هذه الوحدة، وعمّق فلسفتها وجعلها أكثر قوة في ظلّ سيطرة الاستعمار الغربيّ على عدد من أقطار العالم الإسلامي، وتعكس كتاباته في مجلة العروة الوثقى، الدعوة لهذه الوحدة، ونبذ النعرات العصبية والقومية التي بدأت تظهر في المجتمعات الإسلامية المتعددة الأعراق والجنسيات، بإيعاز وتأثير من دوائر الاستعمار الغربي، وأدواته المؤثرة، يقول الأفغاني:

"إنّ اُستقراء حال الأفراد من كلّ أمّة واُستطلاع أهوائها، يثبت لجلي النظر ودقيقه، وجود تعصّب للجنس، ونعرة عليه عند الأغلب منهم، وإنّ المتعصب لجنسه منهم، ليتيه بمفاخر بنيه، ويغضب لما يمسّهم، حتى يُقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب، ولا بحث في علة الوجدان، ..فلهذا صار بعض الناس عرضة لاُعتداء بعض آخر، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقابا

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

طوالا إلى الاُعتصاب بلُحمة النسب على درجات متفاوتة، حتى وصلوا إلى الأجناس، فتوزعوا أمما كالهندي والانجليزي والروسي والتركماني، ونحو ذلك، ..هذا هو السرّ في إعراض المسلمين – على اختلاف أقطارهم – عن اعتبار الجنسيات، ورفضهم أي نوع من العصبيات، ما عدا عصبتهم الإسلامية، فإنّ المتديّن بالدين الإسلامي متى رسخ فيه اُعتقاده، يلهو عن جنسه وشعبه، ويلتفت عن الروابط الخاصة إلى العلاقة العامة، وهي علاقة المعتقد." (5)

وقد قضى الأفغاني – كما يقول محسن عبد الحميد – حياته في الدعوة إلى توحيد صفوف الأمة الإسلامية الممزقة، ودفعها إلى طريق التغيير والبناء، بمعالجة ما هي عليه من جهل واُنحراف، وعودتها الصادقة إلى تعاليم الكتاب والسنة، إضافة إلى نبذها التقليد والتعصب المذهبي والطائفي، من خلال النظر والاجتهاد في ضوء معرفة طبيعة العصر، ومقاصد التشريع، وإدراكها لحقيقة الاستخلاف الإلهي ودور الإنسان المسلم، في تغيير الأوضاع، وبناء الحضارة، وصنع المستقبل من المنطلقات الأساسية للإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا، كما دعا إلى الاستفادة الكاملة من مواطن القوة الحضارية العلمية والعمرانية في الحضارة الحديثة، لكن مع تحذيره المتكرر من المنطلقات المادية لثقافات الغرب التاريخية والحديثة. بالموازاة مع هذا رفض الأفغاني الاستبداد السياسي في الحكم، واُعتبره من أكبر عوامل التخلف السياسي والاجتماعي والحضاري للأمة الإسلامية، كما اُستنهض طاقات الأمة الفكرية من أجل صدّ الهجوم الفكري الشامل الذي شنّه المستعمر الغربي ودوائره الثقافية على الإسلام عقيدة وشريعة ورموزا وحضارة، بقصد تشويه معالم الإسلام في نفوس المسلمين، وتشكيكهم في ماضي أمتهم، وفي تاريخهم، وأمجادهم، حتى لا يشعروا بالاعتزاز بهذا الماضي، ولا يهبّوا للدفاع عن دينهم ومقدساتهم، فيسهل على المستعمر قيادهم والسيطرة عليهم. (6)

من جهة أخرى ربط محسن عبد الحميد بين هذه الدعوات التي أطلقها الأفغاني، وبين رؤيته لدور القرآن في إحداث التغيير المطلوب والشامل في الحياة الإسلامية، وذلك من خلال إحداث ثورة في مناهج تفسير القرآن الكريم، تربط مفاعيله بالحياة العملية في الواقع الإسلامي، فاُعتُبر بهذا العمل مؤسس المنهج التجديدي الحديث في تفسير القرآن الكريم، وكان قد هاجم المناهج التفسيرية التي أقحمت علوما ومصطلحات غريبة ومعقدة في تفسير الآيات لا يفهمها إلاّ جهابذة العلماء، فحجبت بذلك حقائقه عن الناس، وحرمت المسلمين من تذوقه وفهم آياته والانفعال بروحه، وهو وإن لم يؤلف تفسيرا للقرآن بسبب ظروف حياته، فقد فسّر بعض الآيات المعينة في مجلة العروة الوثقى، توضح المنهج الذي كان يرمي إليه، حيث يتطرق في تلك الآيات إلى السنن الإلهية، ويربط بينها وبين واقع المسلمين حينئذ، وينتهي إلى بيان حكمة هداية القرآن للمجتمع الإنساني، بحيث يكون حافزا للنهوض، وتطبيق سنن الله في أوضاعهم وحياتهم التي لا تنسجم مع دعوة القرآن.

المطلب الثاني: محمد عبده بين إصلاح التربية والتعليم وفتح باب الاجتهاد:

يرى الكثير من الباحثين أنّ حركة محمد عبده (ت 1905م)، ودعوته الإصلاحية، كانت اُمتدادًا، واُستمرارًا للفكر الإسلامي المقاوم للاُستعمار وأدواته ومخططاته، والتي دشّنها جمال الدين الأفغاني، وقد مثّلت حركة دفاع وإنقاذ وإنهاض لطاقات الأمة، من أجل العودة إلى مصدر قوتها المتمثلّ في دينها، الذي يضمن لها الحرية والانعتاق والقوة والنهوض، ووصف محمد عمارة الإمام محمد عبده، بأنه أعظم العقول الإسلامية الحديثة، التي وهبت جلّ طاقاتها لتجديد الفكر الإسلامي، وجلاء ركام البدع والخرافات والإضافات عن أصول الإسلام، حيث أخذ عن الأفغاني منهج الإصلاح الديني كسبيل لتجديد حياة الشرق والشرقيين من جهة، ومن جهة أخرى واصل رسالة الطهطاوي في تقدير المرأة وضرورة تحريرها بالعلم، وتخليصها من القيود التي قُيّدت بها خطأً باُسم الدين، كما تبنى الفكر الاجتماعي المتقدم، عندما اُنطلق من منطق العصر واُحتياجاته، إلى النظر في تراث الإسلام الاجتماعي

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بعقلٍ واعٍ، وأفقٍ مستنير. (7)

ولفهم المرتكزات التي بنى عليها محمد عبده دعوته الإصلاحية، لا بدّ من العودة إلى سيرته التي حدّد هو نفسه من خلالها، الأهداف التي عمل من أجلها، والتي تراوحت بين الإصلاح الديني والاجتماعي واللغوي والسياسي، يقول محمد عبده:

"وجدت أنني نشأت كما نشأ كلّ واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر، ودخلت فيما فيه يدخلون، ثمّ لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون، وأُندفعت إلى طلب شيءٍ مما لا يعرفون، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت إليه، وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتمّ حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وإنّه على هذا الوجه يعدّ صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى اُحترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل، كلّ هذا أعدّه أمرا واحدا، وقد خالفت في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منها جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم.

أما الأمر **الثاني:** فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير، سواءٌ كان في المخاطبات الرسمية، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة، مُنشَأً أو مترجما من لغات أخرى، أو في المراسلات بين الناس، وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجه الذوق، وتنكره لغة العرب:

الأول: ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها، وهو ضرب من التأليف بين الكلمات، رثّ خبيث غير مفهوم، ولا يمكن ردّه إلى لغة من لغات العالم..

والنوع **الثاني:** ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر، وهو ما كان يراعى فيه السجع،.. رديئا في الذوق، بعيدا عن الفهم، ثقيلا على السمع، غير مؤدّ للمعنى المقصود، ولا منطبق على آداب اللغة العربية..

وهناك أمر آخر كنت من دعاته، والناس جميعا في عمى عنه، وبُعدٍ عن تعقله، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها، وهي هذه الأمة لم يخطر لها على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم، وأن وجبت طاعته، هو من البشر الذين يخطئون، وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه، ولا يوقف طغيان شهوته إلاّ نُصح الأمة له بالقول والفعل، جهرنا بهذا القول، والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيد له، أي عبيد." (8)

فقد كان من الممكن أن يستكين محمد عبده إلى ما كان عليه عامة المتعلمين في مصر، من علوم شرعية تقليدية تلقاها في الجامع الأزهر، لا تغيّر حياة بائسة، ولا ترفع ظلما واقعا، ولا تُنهض هِمماً خاملةً، ولكنّ نفسه كانت ثواقة إلى التغيير، وهمّته كانت عالية للإصلاح، فدعوته إلى فهم الدين على طريقة سلف الأمة، كانت قوية وطموحة، فهي دعوة للتحرّر من الجمودِ والتخلف والتقليدِ المعيب، والتوجه لطلبِ العلمِ والبحثِ في أسرار الكون، ودعوتُهُ إلى إصلاح أساليب اللغة العربية، هي دعوة

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

للفهم الصحيح للدين كما فهمه سلف الأمة الصالح في عصرهم، إذ لا يمكن فهم دلالات القرآن، ولا اُستيعاب معانيه، إذا لم تُفهم العربية، لغة القرآن على وجهها الصحيح، كما لا يمكن فهم السياسة الشرعية التي دعا إليها الإسلام، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم، إذا لم تُفهم هذه اللغة، فالحاكم يبقى بشراً، وليس كائنا معصوما عن الأخطاء والتجاوزات والاستبداد، له حقوق، وعليه واجبات، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والمحكوم أو الأمة ممثلة بعلمائها وأصحاب الحلّ والعقد فيها، للحاكم عليها حقّ النصح، وأن تأخذ بيده، وتنصحه، وتردّه عن شططه، وتجاوزه، واُستبداده، لأنّ الاستبداد هو أصل كلّ الآفات والمصائب التي اُبتُليت بها الأمة، وهو في هذه المسألة، مسألة علاقة الحاكم بالمحكوم، وأسباب الاستبداد والشطط في اُستخدام السلطة، يلتقي بالكواكبي، على اُعتبار أسلوب الحكم، واحداً من عوامل تخلف الأمة، موازاة مع هذا، ركّز محمد عبده على إصلاح منهج التربية والتعليم، كمدخل أساسي لإحداث التغيير المنشود في المجال الديني والاجتماعي واللغوي والسياسي، واُعتبرهُ السبيل نحو تحرير الفكر، ومقاومة النفوذ الأجنبي، ويقول عن ذلك:

"أمر التربية هو كلّ شيء، وعليه يبنى كلّ شيء، وكلّ مفقود يفقد بفقد العلم، وكلّ موجود يوجد بوجود العلم، وأي إصلاح للشرق والشرقيين، لا بدّ أن يستند إلى الدين، حتى يكون سهل القبول، شديد الرسوخ، عميق الجذور في نفوس الناس"(9)

فمنهج التربية الصحيح هو الأساس الذي يُبنى عليه كلّ إصلاح أو تغيير، أمّا العلم فإذا فُقِدَ، فُقِدَ معه كلّ شيء، وغاصت الأمة في ظلام الجهل والتخلف، فيسهُل بذلك على الأعداء اُستغلالها والتحكم في مصيرها، وبما أنّ هذه الأمور مترابطة، ومرتبطة، الاستبداد والجهل والاحتلال، فقد واجه محمد عبده النفوذ الأجنبي وأدواته الناعمة في مصر والعالم الاسلامي، من خلال مجابهة منظومة الاستعمار الفكرية الثقافية، من خلال دحض مزاعم أدواته المتمثلة في الاستشراق والتبشير وحركة التغريب، ومن أولئك المستشرق الفرنسي غابرييل هانوتو، وكان مستشاراً لوزارة الاستعمار الفرنسية، حيث نشر هانوتو مقالا يهاجم فيه الإسلام والمسلمين، كلّه حقد وعنصرية وكراهية واُستعلاء، يتبث من خلاله أنّ الحملة الصليبية الغربية على الإسلام وأهله ما تزال متواصلة، ومما جاء في المقال:

"اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الإفريقية بسرعة لا تجارى، حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين، ثم تراموا بها على أوروبا، ولكنهم وجدوا في نهاية اُنبعاثهم هذا، مدنية يرجع أصلها إلى آسيا، بل أقرب في الوصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم، ألا وهي المدنية الآرية المسيحية، ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذي إليه وصلوا، إن شعبا جمهوري المبادئ، شعب فرنسا، هو الذي تقلد زمام إدارة شعب آخر، هو الشعب الإسلامي السامي الأصل، الذي يحمل إليه الشعب الآري المسيحي، ملح المدنية وروحها" (10)

وقد حذّر هانوتو فرنسا الاستعمارية بالعمل على عدم إيقاظ الشعور بالوحدة لدى المسلمين، لأنّهم – كما قال – تجمعهم رابطة واحدة، بها يديرون أعمالهم، ويوجهون أفكارهم إلى الوجهة التي يبتغونها، وهم ينتظرون زعيما يوحّدون مقاومتهم وجهادهم، للاُنقضاض على المستعمر الجاثم على بلدانهم.

وقد واجه محمد عبده الفكر الاستشراقي الغربي، وفنّد المغالطات التي سعى للترويج لها، بعيداً عن الحقائق التاريخية، والحياد العلمي، كما هو حال هانوتو وأمثاله، وذكّر بحقيقة ما كانت تعيشه أوروبا في عصور ظلامها، وتخلّفها، وجهالتها، من حروب وسفك للدماء، وحملات شعواء، ومحاكمَ تفتيشٍ سَلّطتها الكنيسة على العلم والعلماء، كما ذكّرها بأفضال الإسلام والمسلمين

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

عليها، وكيف أشادوا في البوابة الجنوبية لأوروبا، بلادَ الأندلس منارةً شامخة للحضارة والعلم، أفادت منها شعوب أوروبا، المدنية والرقيّ والصنائع وغيرها، وكانت سببا في الأُزدهار والتقدم الذي تعيش فيه في العصور الحديثة، يقول محمد عبده:

"يرى الناظر في كلام مسيو هانوتو لأول وهلة، أنه مقلد في التاريخ، كما هو مقلد في العقائد، وأنه جمع خليطا من الصور وحشرها في ذهنه، ثمّ سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر، ليدهش بها من لا يعرف الإسلام من الفرنساويين،..هل يظنّ مسيو هانوتو أنّ التمدن الذي وصل إليه الأوروبيون، حُمِلَ إلى أوروبا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية إلى الأقطار الغربية؟ ما هذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوروبا عندما أُنتقص أطرافها المسلمون؟ هل كانت تلك المدنية هي التّسَافُكُ في الدماء، وإشهار الحرب بين الدين والعلم؟ ماذا حمل الإسلام إلى أوروبا، وما هي المدنية التي زحف عليهم بها، فردّوها؟ زحف عليهم بما أُستفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا الآريين، زحف عليهم بعلوم فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين، نظّف جميع ذلك ونقّاه، وذهب به أبلج ناصعا، بهر به أعين أولئك الغافلين المسكعين، الذين كانوا في ظلمات الجهالة، لا يدرون أين يذهبون.

إنّ أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين، فطارت بها إلى المدنية الحاضرة، كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها مدة قرون، فما أُستطاعوا إلى ذلك سبيلا." (11)

ويمكن القول أنّ المنهج الإصلاحي لمحمد عبده، كان متأثّرًا بروافدَ وأفكارٍ علميةٍ متعددة، فقد كان لاُتّصاله بالشيخ حسن الطويل (ت 1899م)، أحد كبار علماء الأزهر، أثر كبير في توجهه نحو العلوم العصرية، غير أنّ لقاءه بجمال الدين الأفغاني، كان نقطة التحول الكبرى في حياته وفي منهجه الإصلاحي، حيث لازمه محمد عبده تلميذا وصديقا منذ حضوره إلى مصر في العام 1871م، وحتى وفاته في العام 1879م، وكان الأفغاني بمواهبه الفطرية، وسعة علمه، وحسن نظام فكره، وسموّ مطامحه، وعلوّ نفسه القوية، المشتعلة حياة وعزما، – كما يقول أحمد تيمور – وحده القادر على تخليص محمد عبده من خموله الصوفي، ومن الحيرة في اُلتماس الكمال العلمي، وهذه العلاقة وهذا الاتصال هي التي فتحت له أبواب المجد العلمي، ومنحته ثقة السلطة الحاكمة في مصر، إذ عندما تولى الخديوي توفيق عرش مصر، قام بتعيين رياض باشا رئيسا للنُظّار وهو منصب بمثابة رئاسة الحكومة، وكان رياض باشا صديقا للأفغاني الذي تمّ إبعاده عن مصر قبيل تولي توفيق، فلم يجد أنسب من أحد تلامذة الأفغاني الذين رباهم على فكره ومنهجه الإصلاحي وهو محمد عبده، كي يسلّمه مهمة إصلاح جريدة "الوقائع المصرية" التي كانت بمثابة الجريدة الرسمية آنذاك، ويعيّنه رئيسا لتحريرها. (12)

ويذكر أحمد أمين أنّ محمد عبده، كانت له تجربة في الكتابة الصحفية، إذ أنّه بدأ الكتابة في جريدة الأهرام منذ السنة الأولى من صدورها في العام 1876م، وعندما ولاّه رياض باشا رئاسة الوقائع المصرية، ضمّ إليه سعد زغلول، والشيخ عبد الكريم سلمان، وإبراهيم الهلباوي، والشيخ محمد خليل، والسيد الوفا، وكان من وسائل إصلاحهم إنشاء قسم غير رسمي في الوقائع المصرية، بجانب الأخبار الرسمية، يتمّ فيه تحرير مقالات أدبية اُجتماعية إصلاحية، وقد جعل محمد عبده من هذا العمل الصحفي، رقابة على المصالح الحكومية، ومنبرًا للدعوة إلى الإصلاح، فاُستصدر قرارًا بلائحة تجعل جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى، ملزمة بالكتابة إلى إدارة المطبوعات بجميع الأعمال الهامة التي تنوي القيام بها، وأن ترسل المحاكم جميع نتائج أحكامها، وتبيح لإدارة المطبوعات حقّ النقد لأيّ عمل من الأعمال، حتى وزارة الداخلية التي يتولاها رياض باشا، وأن تسأل كلّ مصلحة عن حقيقة ما وُجّهَ إليها من نقد في الجرائد العربية والأجنبية، وعلى العموم فقد جعل محمد عبده من الوقائع المصرية أداة إشراف

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

على الحكومة، وعلى ما يُنشر في الجرائد العربية من حيث لغتُها وموضوعها، وعلى الجرائد الأجنبية من حيث نقدها، كما جعلها أداة لنقد بعض الأخلاق والعادات الاجتماعية والدينية، وتوضيح بعض المفاهيم السياسية كنظام الشورى، وما يصلح منه في مصر.

المطلب الثالث: عبد الرحمن الكواكبي في مواجهة الاستبداد والدعوة إلى التحرر:

عبد الرحمن الكواكبي (ت 1902م) هو أحد رواد النهضة العربية ومفكريها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما أنّه أحد مؤسسي الفكر القومي العربي، عاش فترة من حياته في حلب، ركز جهوده فيها على مسألتين اُثنتين: محاربة الاستبداد، والدعوة إلى التحرر، وكانت كما قال أحمد أمين أنصعُ صفحةٍ في تاريخ حياته، هي قوة شعوره بفساد حال المسلمين، حيث خصص جزءًا كبيرا من وقته في التعرف على أحوال المسلمين في كلّ البلاد الإسلامية التي زارها، من الدولة العثمانية، إلى سواحل افريقيا الشرقية، ثمّ سواحل آسيا الغربية، وبلاد العرب، والهند، ومصر ، والمغرب الأقصى، وغيرها. **(13)**

وقد جمع الكواكبي نتائج دراسته للحالة الإسلامية في كتابين هامين، وهما: (طبائع الاستبداد) الذي خصصه لنقد الحكومات الإسلامية، و (أمّ القرى) الذي اُنتقد فيه حالة الشعوب الإسلامية، ومما قاله بخصوص ظاهرة الاستبداد:

"هجرتُ دياري سرحا في الشرق، فزرت مصر واُتخذتها لي مركزا أرجع إليه، ..فوجدت أفكار سراة القوم في مصر كما هي في سائر الشرق، خائضة عباب البحث في المسألة الكبرى، أعني المسألة الاجتماعية في الشرق عموما، وفي المسلمين خصوصا، إنما هم كسائر الباحثين، كلّ يذهب مذهبا في سبب الانحطاط وفي ما هو الدواء، وحيث إني قد تمحص عندي أنّ أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية." **(14)**

وهذه المساحة التي تحرك فيها الكواكبي كما يقول عدد من الباحثين، كانت من المحرمات، لأنّها تمسّ نظام الحكم من جهة، ومن جهة أخرى، توقظ الشعوب الإسلامية، وتنشر فيهم الوعي للمطالبة بحقوقهم إذا سُلبت منهم بفعل الظلم، وتحفّزهم لأداءِ واجباتهم من أجل إعادة إحياء الأمة، وإيقاظها من غفلتها، والدليل على أنّ ما حاول الكواكبي تحريكه، هو من الممنوعات والمحرمات، كتابه (أم القرى)، حيث بالغ فيه في الاُحتياط لنفسه، ولمن اُلتقى بهم من معظم البلدان الإسلامية، و لم يكشف هويته أو هويتهم، وذَيّلَ تأليف الكتاب باُسم مستعار، وهو السيّد الفراتي، إحالة على جغرافية أصله، ومسقط رأسه، يقول الكواكبي عن ذلك:

"أما بعد فأقول وأنا هو الرحالة المتكنى بالسيد الفراتي، أنّه لما كان عهدنا هذا وهو أوائل القرن الرابع عشر عهدا، عمّ فيه الخلل والضعف كافة المسلمين، وكان من سنة الله في خلقه أن جعل لكلّ شيءٍ سببا، فلا بدّ لهذا الخلل الطارئ والضعف النازل من أسباب ظاهرية، غير سرّ القدر الخفي عن البشر، فدَعَت الحمية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب والسياسيين، للبحث عن أسباب ذلك، والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الإسلامية." **(15)**

فالكتاب ترجمة لمؤتمر يبحث أسباب تخلف العالم الإسلامي، والعوامل الكفيلة بنهضته، وقد اُختار الكواكبي عقده في مكة المكرمة، وجمع فيه ثلّة من العلماء والمفكرين من مختلف بلاد الإسلام، وكلّهم عرّفهم كما عرّف نفسه بأسماء مستعارة تشير إلى أصل اُنتماءاتهم الجغرافية، من قبيل الأستاذ المكي، والصاحب الهندي، والفاضل الشامي، والبليغ القدسي، والحكيم التونسي، والمرشد الفاسي، والمجتهد التبريزي، والمحقق المدني، والمولى الرومي، والإمام الصيني، وهكذا.. وهذا التخفي — كما قلت —

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

يوحي بمزيد من التحوّط، والخوف من عيون الرقيب، وأن يتمّ كشف اللقاء، أو المؤتمر من قبل أعوان السلطة والحكام، ما يعطي انطباعا بأنّ المرحلة، هي مرحلة استبداد سياسي، وتغوّل في ممارسة الحكم من قبل سلطة قد تكون متواطئة مع النفوذ الاستعماري الذي كان جاثما على معظم الأقطار الإسلامية خلال هذه المرحلة.

وقد التقى الكواكبي بمحمد عبده في مصر، وكان الرجلان – كما قال أنور الجندي – يلتقيان في كثير من المفاهيم المتعلقة بعوامل الضعف التي حلّت بالفكر الإسلامي، والتخلف الذي أصاب الأمة الإسلامية، لكنّ محمد عبده ركز جُهده الأكبر على الجانب التربوي، ووجه عنايته كلّيا إلى تجديد الدين وفتح باب الاجتهاد كوسيلة للنهوض، بينما عَنِيَ الكواكبي بالجانب السياسي أكثر، وبظاهرة الاستبداد وأثرها في الدولة والأمة والمجتمع، وهذا يعود إلى البيئة التي عاش فيها كلّ من الرجلين، فالكواكبي عاش في حلب، وواجه نظم الحكم العثماني التي اتسمت بالظلم والاستبداد، أمّا محمد عبده فكانت البيئة المصرية التي تأثر بها تحمل طابع الاحتلال، وآثاره بعد فشل الثورة العرابية، ومن ثَمّ كانت في حاجة إلى نوع آخر من المواجهة، لكنّ كلا الرجلين قد تأثر بجمال الدين الأفغاني وبأفكاره الإصلاحية، وشكّل امتدادًا له على نحو من الأنحاء، أمّا بخصوص منهج الإصلاح والتجديد فيختلف عند كليهما، فالكواكبي ينطلق من نقطة العروبة لغة وعرقا، وذلك بحكم مواجهته لنُظم الحكم العثماني في الشام، أمّا محمد عبده فقد عَمِل على تجديد الفكر الإسلامي كلّه، واتخذ من مصر تجربة صالحة لتشمل العالم الإسلامي كله، **(16)**

وقد عرّف الكواكبي الأنظمة المستبدة، أو الحكومة المستبدة بأنّها تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق، كما تشمل حكومة الجميع ولو كانت منتخبة إذا مارست الاستبداد، كما أدخل في مفهومه للاستبداد الاستعمار الغربي لبلاد الإسلام، ورأى في المستعمر تاجرًا لا ينظر إلاّ إلى مصلحته، ولا يأبه إلاّ بنهب خيرات وثروات الشرق، والعبرة كما يقول ليس بأسماء الحكومات، وإنّما بحقيقتها وممارساتها.

وعلى الرغم من حربه الشعواء على الاستبداد، فإنّ الكواكبي لم يكن يؤمن بتغيير الأنظمة المستبدة بالقوة كما أشار إلى ذلك أحمد أمين، وإنّما يرى مقاومتها باللّين وبالتدريج، عن طريق بثّ الشعور بالظلم، وذلك بالتعليم والتحميس، لأنّ الاستبداد في نظره محفوف بقوات متعدّدة تكفل له الحماية، مثل قوة الجيش، وقوة المال، وقوة رجال الدين، وقوة الطبقة الغنية، فإذا ما تمّت مواجهته بالقوّة، أدّى ذلك إلى فتنة تودي بحياة الناس، وتحصد الأخضر واليابس، ومن ثَمّ فالواجب أن تكون المقاومة بالحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، كما أنّه يتوجّب قبل مقاومة هذا الاستبداد تهيئة ما يحلّ محلّه، ومعرفة الغايات معرفة دقيقة وواضحة، ومتى وضحت هذه الغايات، يجب السعي لإقناع الناس بها، حتى يرضوا عنها، ويروّجوا لها، فتنتشر في كل الطبقات، وتصير بمثابة العقيدة، عندئذ يتوق الناس جميعا لنيل الحرية، وتحقيق المثل الذي ينشدونه، فلا يسع الحاكم المستبد إلاّ الإذعان والإجابة طوعا أو كرها. **(17)**

وقد ذكر محمد عمارة أنّ ما أثاره الكواكبي في كتابيه (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) من قضايا وأفكار، تُظهر أنّنا أمام عبقرية نادرة، وبناء نضالي عتيد، وصرح من صروح الفكر العربي التقدمي، وتلك القضايا والأفكار تمثل واحدة من أعمق الدراسات التفصيلية المتأنية التي تناولها باحث عربي، كما تمثل نقطة الانطلاق في أي تطور أو تطوير أو ثورة، يراد لها أنّ تغيّر وجه الحياة، وتكوين البشر في هذا الوطن العربي الكبير. **(18)**

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المطلب الرابع: محمد رشيد رضا والسلفية الإصلاحية من خلال تجربة مجلة المنار:

يعتبر محمد رشيد رضا (ت 1935م) اُبن قرية القلمون في لبنان، أحد أبرز المفكرين الإسلاميين، ورائدا من رواد الإصلاح الاسلامي في مطلع القرن العشرين، ساهمت عدة عوامل وأحداث في تشكيل فكره ورؤيته الإصلاحية، مدرسته الأولى البيئة التي ترعرع فيها، فوالده كان إماما في القلمون، وأحد كبار شيوخها، التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية في طرابلس، مؤسسها الشيخ حسين الجسر، أحد كبار علماء لبنان في تلك المرحلة، وكان يؤمن أنه كي تنهض الأمة من جديد، وتتسلق مدارج الرقي، لا بدّ لها من الجمع بين علوم الدين والدنيا على الطريقة الأوروبية الحديثة، مع التربية الإسلامية الوطنية، وهو ما دعا إليه رواد الحركة الإصلاحية إبّان تلك المرحلة وفي مقدمتهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وكلّ هؤلاء تتلمذ رشيد رضا على فكرهم، وعلى رؤيتهم الإصلاحية، وكان رشيد رضا قد اُتصل بمحمد عبده بداية في لبنان، حين نزل هذا الأخير ببيروت، للإقامة بها عقب نفيه من مصر بتهمة المشاركة في ثورة أحمد عرابي، حيث غيّر توجهه حينذاك، فأعرض عن السياسة، وركز جهده في التربية والتعليم، ثم توثقت الصلة بين الرجلين فيما بعد، خصوصا حين نزل رشيد رضا إلى مصر عام 1898م، واستفاد أكثر من دروس الشيخ، وأفكاره، ومنهجه الإصلاحي، فبدأت مرحلة جديدة في حياته، كانت أكثر إنتاجًا، وتأثيرًا في مسار دعوته.

وقد وصف إبراهيم العدوي الأحداث التي شهدتها تلك المرحلة من حياة الشيخ رشيد رضا، وهي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، والسنوات الأولى من القرن العشرين، أنّها كانت من أشدّ سنوات الأمة العربية قسوة على النفس والمصير، اُلتقى فيها الاستبداد العثماني بالاستعمار الأوروبي المتحالف مع الصهيونية، حتى صار عبءُ الإصلاح ثقيلا، ينوء به أولو العزم من القادة، واستطاع رشيد رضا في خضم هذا كلّه، أن يحمل رسالته تلك الأيام في قوة، لأنه درس في روية وإمعان مشاكل الأمة العربية والعالم الإسلامي، فضلا على أنه تربى في مهاد تلك المشاكل والأحداث، وتابع تياراتها وتدفقها. (19)

وقد أسس رشيد رضا مجلة المنار على غرار مجلة العروة الوثقى، كوسيلة للتربية والتعليم، فعملت خلال هذه الأحداث على بثّ الأفكار الداعية إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، والإيقاظ العلمي والسياسي، ومحاربة الجهل والخرافات والبدع ، وإعداد الوسائل للنهوض بالأُمة وتقويتها، وباتت تشكّل المجلة الشرعية الأولى في العالم الإسلامي، وموئل الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، وقد دعا المسلمين من خلالها إلى ضرورة تغيير الصورة التي ألفوها عن دينهم، واعتقادهم أنّ به سرا روحانيا يمدهم بالنصر والقوة بصرف النظر عن خلقهم وأعمالهم، وأنّ عليهم أن يعرفوا أنّ قيمة الإسلام تكمن في الحقيقة التي يعلمها للإنسانية، وهي أن سعادة المرء في هذه الحياة والحياة الأخرى، تتوقف على معرفة سنن الله التي تضبط رقي البشر، وأنّه تعالى لا يمنع خيرات العالم عن الذين يطلبونها بالطرق الصحيحة، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، كما ذمّ البدع والخرافات والممارسات الجاهلية التي تفشّت في أوساط العامة، وأنحى باللائمة في ذلك على من وصفهم برجال الدين العابثين، الذين يتخذون من ذلك وسيلة للسيطرة والتحكم، ووأد كلّ حرية للفكر أو دعوة للإصلاح، وقد ركز رشيد رضا في المنار كثيرا على سلوك العلماء والحكام، باُعتبارهم أساس صلاح الأمة أو فسادها، فهم كما قال بمثابة العقل المدبر والروح المفكر للإنسان، ومما قاله في هذا الصدد:

"إذا رأيت الكذب والزور والرياء والنفاق والحقد والحسد وأشباهها من الرذائل فاشية في أمة، فاحكم على أمرائها وحكامها بالظلم والاستبداد، وعلى علمائها ومرشديها بالبدع والفساد، والعكس بالعكس" (20)

لقد كانت المنار إحدى الأصوات الإعلامية القوية، الهادفة إلى تحريك الوعي الديني والسياسي للأمة خلال تلك المرحلة

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

العصبية من تاريخها، وقد وصفت مجلة دعوة الحق في أحد أعدادها العلامة محمد رشيد رضا، بأنه يمثل نموذجا لمجموعة من الموسوعيين في مجال الصحافة والفكر العربي المعاصر، الذين أتاحت لهم فسحة العمر، إنشاء صحف شهرية عاشت سنين طويلة، وحوت عصارة تلك المرحلة كلها، وأصبحت مرجعا أساسيا لكل باحث، إذ أن مجلة المنار التي أنشأها عام 1899م، عاشت إلى وفاته 37 سنة، شأنها في هذا شأن الهلال الذي أصدره جرجي زيدان، والمقتطف الذي أنشأه الدكتور صروف، والعرفان التي أصدرها أحمد عارف الزين، والمشرف الذي حرره الأب لويس شيخو، وكلّها أعمال فردية ضخمة، عاشت طويلا بعد أصحابها، وعقدت مجلة دعوة الحق مقارنة بين رشيد رضا وأستاذه محمد عبده، فأوضحت أنّه كان يجمع بين العمل في ميدان الفكر الإسلامي، والقضايا السياسية في العالم الإسلامي، فقد فسّر القرآن وأكمله مراحل بعد وفاة محمد عبده، وهو وَإن سار على منهجه، وكان امتدادا له في النظرة العامة، فقد خالفه في بعض آرائه، وكان له طابعه الاستقلالي الواضح، إذ أنّه لم يكن من خريجي الأزهر، ولا مصري الجنسية، ولا مشغولا بإصلاح الأزهر، أو بالقضية المصرية الوطنية، فهو اُهتمّ أساسا بالحكومات العربية، وبقضايا العالم الإسلامي، وكان له في مجال الدراسات الإسلامية طابعه المختلف عن طابع الشيخ محمد عبده، فهو فقيه متبحر، وأكثر عمقا في مجالات قضايا الفقه والتشريع، ومراجعات المذاهب والأقضية، ودقائق المسائل والفتاوي والعلل، درس اختلافات الأئمة والفقهاء ومساجلاتهم، ووجوه النظر المختلفة بين المذاهب الأربعة وغيرها من المذاهب، (21)

وقد عدّد شكيب أرسلان مناقب رشيد رضا في الدفاع عن الإسلام ضدّ الهجمات التي طالته من مختلف الجهات المعادية، أو ما سمّاه بنضاله الديني عن الإسلام والمُراماَة عن عقيدته، ومجادلته عنه بالقلم، لردّ شبهات الأعداء من الملل الأخرى، ومن الملحدة والمعطلة، وبلغ في ذلك شأوًا كبير لم يبلغه أحدٌ من معاصريه، كما ذكر جهوده في كتابة تاريخ الإمام محمد عبده، وكان تاريخا في الوقت ذاته، لعدد من المفكرين المصلحين كالأفغاني، وضمّنه أيضا أهم الأحداث التي شهدتها مصر العربية في تلك الفترة، إلى جانب وثائق تاريخية لا توجد في كتاب آخر، ومباحث عقلية، وشرعية، وسياسية، وأدبية، ولغوية، وكانت له جهود معتبرة في العناية بالحديث، وشؤون المرأة، وفي هذا المجال كما يقول شكيب أرسلان، ألّف كتابا بعنوان (نداء إلى الجنس اللطيف)، بيّن فيه حقوق النساء في الإسلام، وتحقيق مسائل اُجتماعية كانت مثار نقاش خلال تلك الفترة، من قبيل تعدّد الزوجات، والتسري، والحجاب، والسفور، والطلاق، وما يتعلق بزوجات النبي ﷺ من الأحكام والحكم، وتكريم النساء، وبرّ الوالدين، وتربية البنات وغير ذلك، بطريقة تنسجم مع مقاصد الشريعة الإسلامية، وتطورات العصر، وتراعي المصلحة العليا للإسلام والمسلمين. (22)

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع:

- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، ص 61 ، 62، الطبعة الرابعة 1384ه/1964م، مكتبة وهبة.
- مجلة العروة الوثقى، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ص 441، صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام 2015م.
- حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، المجلد 1، ص 305 و 306، صادرة عن مكتبة ومطبعة عيسى البابي وشركاه بمصر عام 1352ه.
- السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية، علي محمد الصلابي، ص 33، الطبعة الأولى 1431ه/ 2010م، المكتبة العصرية.
- العروة الوثقى، ص 41 و 42، مؤسسة هنداوي.
- تجديد الفكر الإسلامي، محسن عبد الحميد، ص 102، 103، 104، الطبعة الأولى 1416ه/ 1996م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (10).
- الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق وتقديم محمد عمارة، ج1، ص 12 و 14، الطبعة الأولى، 1414ه/1993م، دار الشروق.
- المصدر السابق، ج2، ص 310 و 311، و 312.
- المصدر السابق، ج1، ص 153.
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص 18 و 19.
- الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، محمد عمارة، ج3، من ص 220 إلى ص 223 بتصرف.
- أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، أحمد تيمور باشا، ص 113 و 114، صدر عن مؤسسة هنداوي عام 2019م.
- زعماء الإصلاح في العصر الحديث، احمد أمين، ص 251 و 252، صدر عن مكتبة النهضة المصرية عام 1948م.
- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبي، ص7، صدر عن مؤسسة هنداوي عام 2010م.
- أمّ القرى للسيد الفراتي، عبد الرحمن الكواكبي، ص 3، صدر عن المطبعة المصرية بالأزهر عام 1350ه/ 1931م.
- اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى، أنور الجندي، ص 141 و 142، الطبعة الأولى 1398ه/1978م، دار الاعتصام.
- زعماء الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين، ص 81، صدرت عن مؤسسة هنداوي عام 2010م.
- عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام، محمد عمارة، ص 211 و 212، الطبعة الثالثة 2007م، دار الشروق.
- رشيد رضا الامام المجاهد، إبراهيم أحمد العدوي، ص 3، سلسلة أعلام العرب (10)، صادرة عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- مجلة دعوة الحق، العدد 94،
- https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/2166
- حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، المجلد 1، ص 285 و 286.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/